التقديم :

https://nidaulhind.blogspot.com

مدونة علمية دعوية فكرية

(راجيا دعائكم)



« مابلا »

للأستاذ محى الدين الالوائى

عرف مسلمو مليبار عموما باسم « مابلا ». غير أن هـــذا الاسم لا يختص بالمسلمين فقط فى ولاية « تراونكور » بجنوب مليبار. بل يدعى المسيحيون أيضا به فى تلك الولاية. وهؤلاء المسيحيون ينتمون إلى الكنيسة السريانيـة. وكان لهذه الكنيسة نفوذ كبير فى العراق وسوريا قبل الاسلام. وقد وفد إلى مليبار عدد كثير من هؤلاء المسيحيين عبر الخليج الفارسى. فاستوطنوا فى مختلف أنحاء مليبار. والمسيحيون المنحدرون من نسل هؤلاء السريانيين، هم الذين يُعرفون باسم « مابلا » فى ولاية « تراونكور ». ومن هذا يتضح أن هذا الاسم متصل بالمسيحيين الذين قدموا من العراق وسوريا. ويقول السيد شمس الدين القادرى الحيـــدرآبادى فى كتابه القيم « مليبار »: « إن من العسير أن نكون رأيا قاطعا عن المنشأ الأصلى لكلمة « مابلا ». ويقول « ولسن » (Wilson): إنهـا مجموع كلمتى « ما » و« پلا » ومعناهما « ابن الأم ». ويستدل على هـــذا التكهن بأن السائحين من العرب والعجم كانوا يتزوجون من نسـاء مليبار. ومن عاداتهم أن يطلقوهن حينما يعودون إلى أوطانهم الأصلية. فبدأ أن يدعى أولادهم من زوجاتهم المليباريات باسم « مابلا » أى الأم نسبـة إلى أمهاتهم. وجاء فى « مدراس كلوسرى » (Madras Glossary) أن « ما » كلمة دخيلة فى اللغة المليبارية من السنسكرتية. ومعنـاها الأصلى « العظيم » فلما وصل المسلمون إلى مليبار استقبلهم المواطنون المحليون بحفاوة وتكريم. ولقبوا أيضا أبناء هؤلاء المسلمين باسم « مابلا » أى « ابن العظيم ». وكلمة « پلا » تستعمل فى اللغة المليبارية فى معنى « الابن ».

وذكر اللغوى الكبير «باذكر» (Badger) أن «مابلا» كلمة عربية أصلا وهى «ما فلاح» أى غير المزارع. فلما كان مسلمو مليبار عموما تجاراً لا فلاحين عرفوا باسم «ما فلاح» أى لامزارع. ثم تطورت تلك الكلمة وتشوهت حتى صارت الآن «مابلا».

وأما الباحثون فى العصر الحديث. فيرون أن أصل هذه الكلمة «ماربلا» ومعناها «ابن الكبير» أو «ابن المالك» لأن كلمة «مار» تستعمل لهذه المعانى فى اللغة السريانية، وتضاف إلى الأسماء والألقاب عند المسيحيين على سبيل التكريم والتعظيم، نحو «مارتوما» و«ماربابا» وغير ذلك. أما منشأ هذا الاسم فى مليبار. فتقول أسطورة مشهورة بين أوساط المسيحيين السريانيين فى مليبار، إن تاجراً مسيحيا باسم «توما» قدم إلى مليبار قبل الهجرة النبوية بقرن، فاستقبله مهاراجا «كرانغلور» بجنوب الهند بكل حفاوة وتكريم، وأذن له ببناء بيت خاص لسكنه، وكنيسة ليعبد فيها وأصدر بيانا خاصاً بهذا الشأن، وسمى التاجر فيه باسم «كرنغن ـ كنانيو» أى تاجر مهاراجا «چيرا» لأن أفراد العائلة الملكية فى «كرانغلور» يعرفون باسم «چيرمان» ويلقب كل واحد منهم باسم «كرنغن» ومع هذا البيان منحه «المهاراجا» لقب «ماربلا» أى «ابن العظيم» أو «ابن المالك» — (Indian Antiquary 1927, 13-14) هذا، ومن العسير أن نكون رأيا قاطعا عن بدء استعمال هذا الاسم للمسلمين بمليبار، ومن المتأكد أن مسلمى مليبار كانوا يدعون بهذا الاسم فى القرن التاسع الهجرى. فقد زار الرحالة المشهور البرتغالى «بار بوسا» (Bar Bosa) الهند فى القرن العاشر الهجرى أى سنة ١٥٠٨ للميلاد (٩١٤ الهجرية) بعد أن زار القارة الافريقية. وكتب بعد عدة سنوات «مذكرة رحلته» هذا فى سنة ١٥١٤ (٩٢٠ للهجرة) وقد استعمل فى تلك المذكرة كلمة «مور مابلا» (Moors Mopulars) فى عدة مناسبات لمسلمى مليبار ـ

(Description of the coasts of East Africa and Malabar, P. 146) . وقد تحدث عن مسلمي مليبار كثير من المؤرخين المعروفين فى مؤلفاتهم التاريخية، منهم ابن بطوطة (١٣٤٩م ٧٤٣ﻫ) وعبد الرزاق السمرقندى (١٤٤٤م ٨٤٨ﻫ) والشيخ زين الدين المعبرى (١٥٨٣م ٩٩١ﻫ) والمؤرخ «فرشته» (١٦٠٦م ١٠١٥ﻫ). ولم يذكر أحد منهم هذا الاسم لمسلمى مليبار فى كلامهم. فيظهر من ذلك أن الكتاب المسلمين ما كانوا يستعملون هذا الاسم إلى القرن الحادى عشر للهجرة. ومنذ القرن الماضى بدأ يظهر هذا الاسم فى المؤلفات الفارسية، وأول مؤلف استعمل فيه هذا الاسم لمسلمى مليبار كتاب «نشان حيدرى» لمير حسن على فى «شرى رنگا پٹنام» («نشان حيدرى» صفحة ٩٧) وقد وضع هذا الكتاب بأمر من السلطان «ٹيپو».

﴿ تاريخ مليبار ﴾

كانت فى جنوب الهند قبل الميلاد، ثلاث حكومات محلية: «پانڈا» و«چولا» و«چيرا». فأما «پانڈا» فكانت فى أقصى الجنوب. والجهات الشرقية منها من نهر «ويلار» إلى «پنار». وكانت تحت حكم «چولا». وأما «چيرا» فكانت تسيطر على سواحل مليبار الممتدة من «كونكنم» شمالا و«كنيا كمارى» جنوبا. ودامت هذه السلطات المحلية الثلاث حتى الفتح الاسلامى. والحضارات الهندية القديمة ترعرعت فى جنوب الهند تحت ظل هذه السلطات الثلاث. ووجد فى لوحات أثرية مكتوبة فى عهد الامبراطور «أشوكا» ذكر عائلة «چيرا» باسم «چيرلم پترا» (Charalam Putra). وعرف من هذا قدم تلك العائلة الحاكمة — (Caldwell's grammar, P. 22). وكانت عاصمتهم بلدة «كنچى» — أو «كدور» — وآثارها لا تزال باقية فى شواطئ نهر «پريار» على بعد ثمانية عشر ميلا من «كوچين». وبعد ذلك بنوا عاصمتهم بـ«ترونچى كلم» الواقعة

فم نهر «بريار»: وأما التاريخ المفصل الصحيح عن عائلة «چيرا» فلا يزال غامضا. وقد استطاع «سندر رام پالا» والأستاذ «كيل هون» (Keilhorn) أن يجمعا حوالى مأتى لوحات منحوتة لـ«چيرا». وفيها معلومات قيمة عنهم إلى القرن الثانى عشر. ومع الأسف لم يوجد فيها شىء يستحق الاعجاب ولا يتضح منها شىء من عادات وتقاليد تلك العائلة العريقة (Epigraphia India, Vol. 17).

وحسب تحقيق پروفيسر «كيل هون» أن آخر ملوك تلك العائلة هو «چيرمان پرمال». فلما هم أن يذهب إلى جزيرة العرب بعد أن اعتنق الدين الاسلامى، اعتزل الحكم وقسم بلاده بين زعماء الوطن. وقد اشتهر من هؤلاء الحكام الجدد، الحاكم «ساموترى» فى كاليكوت، وأصبح حاكما قويا. وفى أسطورة محلية حكاية ظريفة عن «ساموترى». حينما قسم «چيرمان پرمال» بلاده بين الزعماء المحليين فتقول جاء شخص إلى الملك وطلب منه أن يعطيه أيضا قسطاً من مملكته. وكان «چيرمان پرمال» قد فرغ من التقسيم فى ذلك الحين، ولم يكن يملك إلا سيفه الخاص الذى يحمله دائما. وصاح ديك أمامه فى ذلك الوقت صدفة وتقول الاسطورة أيضا: إن الملك أعطاه ذلك السيف قائلا افتح بهذا السيف مدى ما وصل إليه صياح هذا الديك». فأصبحت البقعة التى فتحها معروفة باسم «كوزكود» — أى كاليكوت — معناها فى اللغة المليبارية «محل الديك».

وسمى المؤرخون تلك العائلة باسم «ساموترى» وهى «كلمة مليبارية» وتنطق بأربع صور. «ساموری» و«ساموترى» و«تامورى» و«تاموترى». وهذه الصور الأربع هيئة مشوهة لكلمة «سامدرى» معناها فى اللغة المليبارية «ملك البحر» (Mackenzie, Collection, Vol. 1). ولما كانت سلطنة عائلة «چيرا» — كما تقدم — ممتدة على سواحل البحر كانوا يعرفون بـ«سامدرى» — ملك البحر. والمعروف أن كاليكوت أيضا تقع فى ساحل بحر العرب. فلما أصبحت مملكة مستقلة بعد «چيرمان پرمال» سمى حكامها أيضا باسم «سامدرى». ولكن

ما كان يستعمل هذا الاسم فى الكتب التاريخية للسلمين إلى بعد القرن العاشر الهجرى، واستعمل أولا فى «تحفة المجاهدين». ونقله المؤرخ «فرشته» إلى كتابه. ويظهر أن السائحين القادمين من الشمال كانوا يسمون هذا الملك باسم «سمور»، قبل القرن العاشر الهجرى. ذكر المؤرخ المشهور أبو الحسن المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦هـ و٩٥٧م) هذا الملك باسم «سمور» وبلاده بمملكة «سمور» (مروج الذهب جزء ١ صفحة ٣٨٢). فلما وصل البرتغاليون إلى مليبار صاروا هم أيضا ينادونهم باسم «سمور». وتبدل بعد ذلك إلى «سامورين» (Zamorin). ولا تزال هذه الكلمة تستعمل فى الآداب الانجليزية على هذه الشاكلة.

﴿ علاقات البلاد الأخرى بمليبار ﴾

كان العرب يفدون إلى مليبار قبل قدوم الاسكندر الأعظم بقرون عديدة. وكانت محصولات مليبار تصدر إلى سواحل جنوب جزيرة العرب، عبر الخليج الفارسى ومن هناك ينقلها التجار العرب إلى «تدمر» بسوريا، و«الاسكندرية» بمصر بطريق «الحجاز» و«اليمن». وأما التجار الغربيون فكانوا يشترون تلك البضائع من سوريا والاسكندرية ثم يصدرونها إلى أسواق بلادهم. وكان العرب والمصريون فى الزمن القديم هم الوسطاء بين الهند وبين الروم واليونان فى ميدان العلاقات التجارية. وأما مركز المحصولات المليبارية فكان مدينة «صفار» بحضرموت. وكان سكانها يتاجرون مباشرة مع مليبار. ولأجل هذا توجد هناك حتى الآن أشجار «النارجيل» وأوراق «التنبول» التى استوردوها من مليبار وغرسوها هناك منذ عهد قديم — (الترجمة الأردوية لكتاب «سناجة الطرب فى تقدمات العرب» صفحة ١٩). وذكر فى العهد القديم من التوراة أن الاسرائيليين كانوا يتاجرون مع مليبار فى عهدى داود وسليمان عليهما السلام.

وجاء فى كتابى «الملوك» و«أنباء الأيام» أن الملك سليمان قد بعث بعثة من الملاحين إلى «غفير» و«ترشيش». وكان هدفه من ذلك استيراد الذهب، والفضة، والصندل، والعاج، والطاووس، والقرود، إلى بلاده. وعادت البعثة من طرشيش بعد ثلاث سنوات. واستمر هذا السفر التجارى للاسرائيليين بعد سليمان إلى عهد الملك «يهوشا». وقد عزم يهوشا أيضا لايفاد بعثتين تجاريتين إلى «طرشيش» و«غفير» ولكن فاجأتهم الأعاصر قبل مغادرة الميناء فأهلكوا (٣٧ - ٢٠ النبأ الثانى و٤٨ - ٢٢ الملك الثانى). وكان ميناء الاسرائيليين العام واقعا بسواحل البحر الأحمر ولهم فيه مصانع لبناء السفن والبواخر التجارية.

قد اختلف الباحثون فى تعيين مواقع «غفير» و«طرشيش». وقال پروفيسر «لاسن» (Lassen) وجنرال «كننغام» (Caunningham) إن «غفير» هى بلدة «أبيرا» بـ«دلتا» فى «مهران» (نهر السند) كما قاله الجغرافى الرومانى المشهور «بطليموس» (Ptolemy). ولكن يناقض هذا الرأى ما فى الاصحاح القديم. والذى يظهر منه أن «غفير» اسم ابن «يوخدان». وكان يوخدان وابن «غفير» مع سائر أبنائه يستوطنون فيما بين «ميشا» الواقعة فى الجنوب الشرقى بجزيرة العرب، وجبل «سفار» فى الناحية الشرقية. فالبحث عن «غفير» فى جنوب جزيرة العرب أوفق منه فى الهند.

وأما الكلمة المستعملة فى ترجمة الاصحاح القديم اليونانية وفى الترجمة التى قام بها اثنان وسبعون يهوديا قبل ميلاد المسيح المشهورة باسم «سبتواجنت» (Septuagint) وفى سائر الكتب الموضوعة بعد ذلك هى «سوفير» و«سفيرا». فالمراد منها إما مدينة «سفارا» بحضرموت أو عاصمة اليمن القديمة «صفالة». وأما «طرشيش» فالمعروف عنها أنها مدينة فى «قليقيا» (Cilicia) فى آسيا الصغرى، ولكننا نحتاج إلى تكوين رأى آخر عنها رغم هذا الرأى، لأن السفن التجارية التى بعثها

الاسرائيليون إلى طرشيش قد عبرت عقبة، وبحر الأحمر. وكان من بين البضائع التى وصلت إلى سليمان من «طرشيش» بعض البضائع الهندية الخالصة، مثل الصندل، والطاووس — (٢٢-١١-١٠ الملك الأول، ونبأ اليوم الثانى ١١-٩١٠). وأما أسماء هذه الأشياء فى العبرانية فتصلة بها فى اللغة «الدراودية». والصندل فى الكتب العبرانية معروف باسم «الكوم» والطاووس «بتوكى». وهذا استعمال مباشر لكلمة ألاكو (Alagu) فى اللغة المليبارية، و«توكى» أو «توكى» (Tuki or Tugi) فى اللغة «التاملية». وهذا دليل ساطع على أن الاسرائيليين قد أخذوا هذه الأشياء من مليبار. ويدل هذا على أن الأوفق أن نقرر أن طرشيش كانت فى هذه البلاد ثم صارت نسيا منسيا فى تقلبات الزمن. وأما «الرز» فى اللغة «التاملية» فهو «أرش» والتى تستعمل فى العربية هى «أرز» أو «رز» وفى العبرانية «أروس» وفى اليونانية «أروز». وكان الرز يصدر من مليبار إلى البلاد العربية منذ عدة قرون قبل الميلاد. وأصبح الطعام المصنوع من الرز شهيا وممتازا عند اليونان أمام «سوفوكلس» (Sophocles). وهذه الوقائع كلها تدل على أن الاسرائيليين واليونان، والعرب كانوا يصدرون الرز من مليبار إلى بلادهم بكثرة.

قد عرف الروم واليونان أن البضائع التى يتاجر بها العرب مصدره من الهند، ولكن ما كانوا يعرفون الطرق الموصلة إلى البلاد الهندية، ولما فتح «سيسر أغسطس» (Agustus) مصر قبل عشرين سنة للميلاد أصبح البحر الأحمر تحت سيطرة الروم. وبعد تلك الواقعة غادرت سفينة تجارية للروم إلى الهند عبر البحر الأحمر. هذا فى أيام «كلاديوس» (Claudius) ولكن ألجأتها الأعاصير إلى سواحل جنوب الهند. وعرفوا من ذلك الحين أن من الممكن الوصول إلى الهند بدون المرور بسواحل العرب. وبدأ التجار الروم بمصر يفدون إلى

الهند، فاتخذوا «مليبار» مركزا تجاريا لهم.

يقول «پلنى» (Pliny): إن السفن كانت تصل إلى مليبار من مصر خلال شهرين وعشرة أيام — (تمدن هند صفحة ١٦١). وكانت مدينتا «موسيرس» و«فوهار» (Phohar & Muziris) أهم الموانئ فى مليبار، فى ذلك الزمن، ومن هناك كانت تصدر البضائع إلى الروم فى السفن الرومية. وقد استوطن عدد غير قليل من الروم فى تلك المدن، فى القرن الأول والثانى قبل ميلاد المسيح.

وبنوا هناك معبدا كبيرا فى مدينة موسيرس باسم «سيسر أغسطس» وجاء ذكر هؤلاء الروم فى الآداب «التاملية» القديمة باسم «يونر». وكانت المصدرات الرئيسية من مليبار إلى تلك البلاد هى الفلفل والدرر وبنا. وأما الفلفل فتختص زراعته فى مليبار. وأما الدرر فتحصل بكثرة من بحر الجنوب الهندى إلى يومنا هذا. وأما «بنا» فهى جوهرة مشابهة لزمرد، وكان الروم يحبونها جدا، ويجمعونها من المعدنين. واحد منها كان واقعاً على شواطئ نهر «كبنى» بجوار «كتور» فى ولاية ميسور. وكان الآخر فى بلدة «پدپور» على بعد أربعين ميلا من «كويمتور». وكان الأوربيون يشترون الفلفل بثمن باهظ فى العصر القديم لأنه كان يعتبر فى ذلك الوقت أغلى من الذهب. عندما غلب الملك «ألارك» (Alaric) على الروم طلب منهم الغرامة وكان من ضمنها ثلثمائة رطل من الفلفل. قد تعرف الكاتبان الرومانيان «پلين» و«بطليموس» الموانئ والمراكز التجارية بمليبار، وزار تاجر رومانى بلاد مليبار قبيل ثمانين سنة قبل الميلاد. فوضع مذكرة عن رحلته إليها باسم «پرپلاس» (Periplus). وتحتوى تلك المذكرة على معلومات قيمة عن مليبار وعن تجار الروم فيها.

وكانت العلاقات التجارية على أتم ما يرام بين الروم ومليبار وسائر أنحاء جنوب الهند إلى ما بعد القرنين للميلاد. ثم توثقت تلك العلاقات بفضل جهود

الملوك البطليموسيين بمصر. وأصبحت الاسكندرية مركز هـذه التجارة. وفى سنة ٢١٥ بعد الميلاد جرى مقتل عام فى الاسكندرية بيد «كاركلا» (Caracalla) فنجم عنه دمار عام فى الاسكندرية. وانقطعت الملاقات التجارية لها مع الهند زمنا ثم استأنفت تلك الروابط بعد مدة. ولكن لم تلبث أن تنقطع عراها مرة أخرى — (J. R. A. S. Oct. 1907 – P. 954-5). ثم عادت تلك التجارة إلى أيدى العرب. وعند قدوم البرتغاليين إلى مليبار كان العرب قابضين على زمام التجارة فيها.

وكان من عادتهم أن يتوجهوا إلى سواحل مليبار، فى شهر يوليو أو أغسطس، أى حينما تكون مجرى الرياح إلى الشرق، فيقيمون هناك حوالى أربعة أشهر ثم يعودون إلى بلادهم فى شهر ديسمبر أو يناير. وكان السفر إلى ناحية واحدة يتم فى ثلاثين يوم إلى أربعين.

﴿ القديس «توماس» فى مليبار ﴾

وفى أساطير المسيحيين أن القديس توماس (St. Thomas) قدم إلى الهند للتبشير بالدين المسيحى. (وقد جمع الكاتب پليپس (Philips) كل ما كتب فى أساطير النصارى عن قدوم توماس إلى الهند — (Indian Antiquary Vol. xxxii, P. 15-160-245). ويقال إن القديس توماس وصل إلى جزيرة «سقوطرة» أولا. وبعد إتمام التبشير هناك غادرها إلى الهند فى سنة ٥٢ للميلاد. وكانت بلدة «كرانغلور» هى أول بلدة نزل فيها توماس بالهند. والمراد بكلمة «موزيريس» (Muziris) فى كتاب «پلينى» هو «كرانغلور». وكان يبشر بالدين المسيحى مدة من الزمن فى ذلك البلد. وبناء على اعتناق جم غفير من الناس للدين المسيحى بنى الكنائس فى البلاد الآتية: (١) كرانغلور (٢) كولم أى كويلون (٣) پاليور (٤) پرور (٥) پلى پرم (٦) كوكامنكلم (٧) نيرنم (٨) نلاكل. وكانت هـذه البقاع ممتدة فى سواحل

مليبار من كرانغلور إلى أقصى جنوب الهند (كنيا كارى). وقد اختار القديس توماس زعماء من قبيلتين من أتباعه لخولهم رياسة هذه الكنائس الثمانية. وكانوا من قبيلة «شنكار پورى» وقبيلة «پكومادم». واستمرت العائلة الأخيرة إلى القرن الثامن الميلادى. وكانت هذه العائلة هى التى تختار رجال الكنائس والأديرة أيام البرتغاليين وهولنــدا (Indian Christians of St. Thomas, PP 76-91).

وبعد الانتهاء من عملية التبشير بمليبار، توجه القديس توماس إلى «معبر» فى الجهة الشرقية. وأقام هنـاك فوق جبل حتى قتل بأيدى حفنة من أعداء الدين. ويقع هـذا الجبل بساحل البحر على مقربة بمدراس. ويدعو الكتاب الأوربيون ذلك الجبل باسم «جبل القديس توماس» (St. Thomas Mount). وفى الكتب الفارسية جاء ذكره باسم «فرنجى ملا». وإن مقبرته المشهورة باسم «سان توم» (San-thome) بالقرب من «ميلا پور» لا تزال مزاراً عاماً، يقصد إليه الزوار من كل فج عميق.

وجاء فى الكتب «التاملية»: كان هناك فى أوائل القرن الثالث الميلادى قديس يعتنق الدين «الشيوى» يدعى «مانى بهاسكرن». فذهب إلى سواحل مليبار فى سنة ٢٧٥م وناظر مع العـائلتين المسيحيتين فغلب عليهما فاعتنقوا الدين الهندوسى. ولا تزال فى مليبار البقية الباقية من تلك العائلات القديمة موجودة — (Tamilian Antiquary Vol. I, No 17). وهـذا دليل قاطع على أنه قد حصل انتشار مرموق للدين المسيحى فى مليبار، وكذلك هذا يبطل الدعوى القائلة بأن الدين المسيحى بدأ ينتشر فى مليبار فى أواخر القرن الثالث للميلاد، ويثبت أيضاً بأن القديس توماس قد جاء إلى هـذه البلاد. أما قبل مجىء الاسلام فكانت البلاد المسيحية الآهلة بالساسانيين تعتنق العقيدة النسطورية (Nestoris). وكانت عاصمتهم «نسيبين» وآثارها لا تزال موجودة بالموصل بالعراق. وكان العراقيون

يقصدون إلى مليبار بطريق الخليج الفارسى، وبدأ المبشرون النسطوريون يقدمون ى مليبار ومعبر فأسسوا هناك كنائس لهم.

وعلى «جبل القديس توماس» كنيسة قديمة جداً للكاثوليكيين الروم بنيت في سنة ١٠٤٧م و٩٠٤هـ أى قبل تسع سنوات لتولى الامبراطور «أكبر» زمام الحكم. وأثناء بنائها قد اكتشفت لوحة أثرية منحوتة بأيدى هؤلاء النسطوريين في مكان ما، فنقلت تلك اللوحة الأثرية من ذلك المكان إلى هذه الكنيسة وأسست هناك، وهى فى شكل الصليب. ونحتت فى جوانبها الكلمات بحروف «پهلوية». وكانت تلك الحروف مستعملة بايران أيام حكم الساسانيين قبل الاسلام. ويرى الاثريون أنها مكتوبة فى القرن الثانى الهجرى أى قريبا بالقرن السابع للميلاد — (Pahlavi Inscription in S. India by A. C. Burnell, Ptd. at Bangalore in 1873).

وفى القرن الرابع للميلاد قد انتشر الدين اليهودى والمسيحى باليمن وحضرموت، وفى الأخير قد اعتنق الملوك الحميريون أيضا الدين اليهودى، وكانوا يجبرون المسيحيين على اعتناق اليهودية. وقبيل مجىء الاسلام، فتح النصارى الاحباش المملكة اليمنية. ووقع قتال عنيف بين اليهود والنصارى فى ذلك الحين. وبعد قليل اتفق الفريقان على إجراء مناظرة عامة فى مجلس عام. وقد جرت المناظرة بين الأسقف «جرجنديوس» (Gregendivs) بـ«صفار» من جانب النصارى، وبين «هربانوس» (Herbanus) من جانب اليهود الحميريين. ولم تسفر المناظرة عن نتيجة منشودة.

ثم قرروا إجراء مباهلة بين الفريقين. فنجح فيها المسيحيون. ومن ذلك الحين بدأوا يؤذون اليهود (مقدمة تفسير القرآن للذيلى صفحة ١٦٠). ولأجل هذا بدأ اليهود الذين كانوا يتاجرون مع مليبار أن يهاجروا إليها مع عائلاتهم ويقطنوا هناك. فاستوطنوا فى بلدة «چاليم» و«شنكالى» (كرانغنور) الواقعة فى

سواحل مليبار. وكانت تلك المدن باقية إلى زمن أبي الفداء وفيها قبائل من اليهود العرب (تقويم البلدان صفحة ٣٥٥).

{ قدوم المسلمين إلى مليبار }

قد لاقت الدعوة الاسلامية نجاحاً باهرا وانتشاراً مرموقا منذ هجرة الرسول عليه السلام إلى المدينة. واعتنقت مئات من قبائل العرب الدين الاسلامى خلال بضع سنوات. وأوفد كبار الناس مندوبيهم إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لاخباره عن إسلامهم. وقد دخل سكان يمن وحضرموت فى الاسلام أفواجا فى العام التاسع والعاشر للهجرة النبوية (٦٣٠-٣١ للميلاد). وكانوا جميعا من التجار. ووصلت تجارتهم البحرية إلى قمة الرقى والنجاح فى ذلك الوقت. وكانوا يشحنون البضائع إلى «الخليج الفارسى» و«مصر» و«سند» و«كونكنم» و«مليبار» و«معبر» و«سيلان» و«سابج» (جاوا) و«الصين» وما إلى ذلك من البلاد النائية. وكانوا يبشرون بالدعوة الاسلامية فى كل بلد ينزلون فيه لغرض التجارة. وبهذه الطريقة قد وصل صوت الاسلام إلى الهند وسيلان فى القرن الأول للهجرة النبوية. وفى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٨٦-٦٥) قدمت جماعة من المسلمين التجار إلى جزيرة سيلان فاستوطنوا فيها. وكان فى مدينة «هرموز» (Hormuz) بالخليج الفارسى ملاح عجمى يدعى «بزرك بن شهريار» وألف كتابا عن رحلته البحرية (سنة ١٠١٣م ٤٠٤هـ) وسماه «عجائب الهند» يقول فيه فى صدد بيانه عن حالات جزيرة سيلان: فلما سمع أهالى سيلان عن الرسول العربى أوفدوا رجلا ممتازا إلى جزيرة العرب للاستطلاع عن حالات ودعوة ذلك الرسول الجديد، ليبلغهم كما رأى وسمع. فوصل ذلك المبعوث إلى جزيرة العرب فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢٣-١٣هـ ٦٤٤-٦٣٤م) فتشرف بمقابلة الخليفة، وتحدث معه عن دعوة الرسول وطرح

حياته، وجمع معلومات وافيـــة. ثم عاد إلى سيلان. ولكن فاجأه الموت فى طريقه وهو فى «مكران»، وكان معه خادم هندى، فعـاد إلى سيلان وبلغ أهلها عن مشاهـداته ومعلوماته، وبين لهم ما سمع عن الرسول صلى الله عليـه وسلم، وعن أبى بكر الصديق الخليفة الأول، وكذلك كشف لهم تفاصيل المحادثات التى جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقال: «إن عمر بن الخطاب رجل تقى شجاع، يلبس الثوب المرقع، وينام فى المسجـد» — (عجائب الهند صفحة ١٥٦).

وكتب المؤرخ المشهور أحمـــد البلاذرى (فى القرن الثالث الهجرى ٢٧٩هـ ٨٩٢م) فى معرض بيـان أسباب فتح «السند»: كان التجـار العرب يذهبون إلى سيلان للتجارة واستوطن هنـاك بعض التجار المسلمين مع عائلاتهم. وقد لاقى منهم البعض حتفهم فيهـا. فلما أصبحت عائلاتهم بدون مـلاذ ولا ملجأ، أرسلهم المـلك الذى كان يحـكم سيلان إلى الحجاج بن يوسف الثقفى بالكوفة بطريق البحر. وزودهم بهـدايا قيمة على حسابه الخاص. ولمـا وصلت السفينة التى تقلهم إلى بلدة ديبل بالسند أغار عليها جماعة من قراصنة ذلك المكان، واستولوا على الهدايا. ولما سمع الحجاج هذا النبأ المؤلم قرر الهجوم على «السند» انتقاماً من هؤلاء الظالمين — (فتوح البلدان صفحة ٤٣٦ و٤٠ و«تاريخ فرشته» الجزء الثانى). وهـذه الوقائع جرت فى عصر وليـد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ ٧٠٥-٧١٥م). ويظهر منها أن أهل سيلان كانوا يعرفون عن الاسلام، وأن التجار العرب المسلمين قد استوطنوا هناك منذ القرن الأول الهجرى. وفى ذلك الزمن وصل أيضاً بعض التجار المسلمين العرب إلى مليبار فاستوطنوا فيها. وتقول تحفة المجاهدين للشيخ زين الدين بن عبد العزيز عن بداية عهد الاسلام فى [illegible] اليهود والنصارى [illegible]

(كرانغنور) عاصمة مليبار منذ أمد بعيد. فلعل اليهود الذين أجلاهم «كيخسروا» ملك إيران — كما تقول أسطورة قديمة — قد هاجروا إلى مليبار ووصلوا إليها من طريق خليج الفارس ثم استوطنوا كوچين. أو كما ذكر الدكتور «فورستر» مسندا إلى كتاب «برتگالي»: خرج في سنة ٣٦٩ من الميلاد جمع من اليهود من جزيرة «ميورقة» من الأندلس وكانوا زهاء سبع أو ثماني ألف نفر. فوصلوا إلى شواطئ مليبار. واتخذوا بلدة «كوچين» مقراً لهم. وأما النصارى، فالمصادر التاريخية تشهد أن القديس «توماس» كان يبشر في مليبار بالمسيحية، وأنه وصل إليها النسطوريون من سوريا من الجزيرة ومن كالديا كذلك. ثم نزلت بعد حقبة من الزمان عاصمة مليبار فئة من المسلمين في سبيلها إلى سيلان، مهبط أبينا آدم لزيارة قدمه. ولما بلغ ذلك إلى ملك مليبار، دعاهم وتحدث إليهم مستفسرا عن النبي الكريم، فأجاب رجل منهم وكان شيخا كبير السن، عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الاسلام. وعن معجزة شق القمر، فصدق الملك بالنبي وأسلم من صميم الفؤاد. وأسر إليهم أنه سيرافقهم في طريق عودتهم إلى بلاد العرب من سيلان بنفسه لمقابلة النبي الكريم. وأكد لهم أن لا يفضوا بما وقع إلى أحد في مليبار. ولما رجع هؤلاء من سيلان، أمر الملك للشيخ أن يحضر سفينة تقله ومن معه. وعندما تم له ما أراد دعى عشيرته وأعيانه وقال: إنني عزمت الانزواء والعكوف على عبادة الله. فلا يقتربن أحد إياى طول أيام الأسبوع.

ثم وكل أمور الحكم موزعاً على رجاله، وكتب لهم في ذلك أمرا حتى لا يتعرض أحد لأحد ولا يختلف فيه اثنان. وأتبع ذلك أن ركب هو ورفقاؤه في الفلك ووصلوا «فندرينة» فباتوا هناك ليلة وقضوا نهارا. ثم أبحروا إلى «درمفتن» ومكثوا فيها ثلاثة أيام. ثم ركبوا حتى بلغوا «شحر» فنزلوا فيها أياما حتى لهم فيها ترتيب بعثة تبشيرية تقصد ديار مليبار، تدعو الناس إلى الاسلام، وتشيد فيها مساجد لله. وإذا بالملك قد أصيب في تلك الأيام بمرض كاد من

شدته أن يذهب بحياته. فأوصى الملك الدعاة المبشرين أن لا يهن منهم العزم فيتأخروا عما عزموا عليه. فقالوا وهم شرف بن مالك وأخوه مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك: أيها الملك! إننا لا نعرف بلادك ولا نعلم منها ثغورها وإنما قصدناها لأنك معنا. فتفكر الملك مليا ثم كتب لهم باللغة المليبارية مكتوبا إلى أقاربه وعماله. ودلهم على عناوينهم، وأمرهم بأن ينزلوا «كدن كلور» (كرانغلور) و «درمفتن»، و «فندينة» أو «كولم». وأكد لهم أن لا يذكروا أحدا كلمة عن مرضه أو عن موته، وعما قليل توفى الملك هناك. وبعد عامين من موت الملك توجه شرف بن مالك ومالك بن دينار، ومالك بن حبيب، بزوجته وعياله إلى مليبار. وبمجرد أن وصلوا إلى «كدن كلور» عرضوا مكتوب الملك على عامله فأقطع لهم الضيعات، وأعطاهم الروضات والحقول وفق مكتوب الملك. فسكن مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب «كدن كلور» وبنى هناك بعد ذلك مسجدا، ثم ارتحل مالك بن حبيب بزوجته وعياله إلى «كولم» حيث أسكن فيها عائلته وبنى فيها مسجدا ثم خرج وحيدا حتى وصل بلدة «هيلى ماراوى» وغادرها بعد بناء مسجد بها إلى «باكور» و «منجلور» و «كنجركوث». وشيد فى كل من هذه الأماكن مساجد لله. فعاد إلى «هيلى ماراوى» وأقام فيها ثلاثة أشهر، ثم غادرها إلى «شاليات»، و «جرفتن» و «درفتن» ثم عاد إلى «كدن كلور» بعد ما بنى المساجد فى كل من هذه البقاع أيضا. ثم أخذ معه عمه مالك بن دينار فطاف بالمساجد كلها وصلى فى كل منها. ثم عادا سويا إلى «كدن كلور» مرة أخرى شاكرين لله على أن البلاد التى كانت تعمها الضلالة، ويكتنفها الكفر، أصبحت تتنور بنور الاسلام. وبعد ذلك غادر مالك بن دينار، ومالك بن حبيب «كدن كلور» إلى «كولم» ومعهما الأصدقاء والخدم. فأقاموا فيها [illegible] مدة طويلة ارتحل مالك بن دينار ومالك بن حبيب مع بعض الصلاح [illegible] [illegible] قبر الملك المتوفى. ثم سافر مالك بن دينا[illegible]

حيث توفى هناك فى بعض نواحيه. وأما مالك بن حبيب فرجع إلى مليبار.
ترك بعض أولاده فى «كولم» واتخذ لنفسه وزوجته مستقرا فى «كدن كلور»
حتى انتقلا إلى رحمة الله. وهذا ما جرى على الاسلام فى القطر المليبارى من
ناحية النشر والنفوذ (من تلخيص الترجمة الأردوية «لتحفة المجاهدين» المنشور
فى «ثقافة الهند» العدد الثانى بالمجلد الخامس صفحة ١٦-١٥-١٤).

والذى يظهر من هذا كله أن الاسلام قد انتشر فى مليبار بأيدى العرب أولا. وكانوا هم الذين أناروا الطريق لنشر الاسلام فى ربوع البلاد. وأول من استوطن من المسلمين فى مليبار هم العرب. وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ حادثة الملك المذكور. أما الشيخ زين الدين فيما أسردنا فلم يذكر اسم الملك الذى اعتنق الاسلام. ويقول المؤرخ فرشته: إن اعتناق الملك للاسلام وسفره إلى البلاد العربية كانا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم — (تاريخ «فرشته» الجزء الثانى صفحة ٣٧٠ وترجمته الأردوية الجزء الثانى صفحة ٤٩١). ولكن الشيخ زين الدين صاحب تحفة المجاهدين يقول: «وليس لهذا الرأى سند واضح». وفى رأيه إن هذه الواقعة كانت بعد القرن الثانى الهجرى. وفى مكتبة «المكتب الهندى» (انڈيا آفس) مخطوطتان منظومتان فى اللغة العربية (Otto-loth Arabic Mss, 714, 920) وفيه شرح لحوادث اعتناق الملك للدين الاسلامى، وقدوم المسلمين إلى مليبار. وفى واحد منها كتب اسم الملك «شكرورتى» وفى الآخر «شكروتى» أى «چكرورتى» ومعنى الكلمة «الملك» أو «الامبراطور» وقد اعتاد التامليون أن يخاطبوا بهذه الكلمة لكل حاكم كلقب عام. ويرى بعض المستشرقين مستدلين ببعض الكتب التاملية والمليبارية أن اسم الملك الذى أسلم وسافر إلى البلاد العربية كان «چيرمان پرمال» (Chereman Peramal) ومعنى «چيرمان» ملك أسرة «چيرا»، و«پرمال» اسمه الخاص — (الترجمة المليبارية

ليبار، للدكتور شمس الله القادرى صفحة ٢٧).

ويفهم من بعض الأساطير «التاملية»، أن «شنكراماچارياز» مؤسس مذهب
يشنوا». والعالم المشهور فى علم الأديان كان معاصراً «لچيرمان پرمال». ويقول
كتور «برنل» (Burnell) إن مولد «شنكراماچاريار» كان فى سنة ٦٥٠ ميلادية
٣ هجرية (Burnell's South Indian Palaeography, P. 33). ولكن تحقق الآن أن
.ه كان فى سنة ٧٨٨م و١٧٢هـ — (Journal Royal Asiatic Society 1912 P. 52).
ا سلمنا برأى الدكتور «برنل» فنستطيع أن نقول بأن «چيرمان پرمال» كان
صراً للنبي عليه الصلاة والسلام وإذا أخذنا بالتحقيق الحديث فان عصره متصل
اخر القرن الثانى الهجرى. ويتضح من بحث محررى «امبيريل گزتير»
(Imperial Gazette) أن «چيرمان پرمال» قد غادر مليبار فى سنة ٨٢٥م
٢١ه فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس، ووصل إلى شاطئ العرب فى
٨٢٦ للميلاد و٢١١ه وتوفى هناك بعد أربع سنوات (٨٣١م و٢١٦ه) —
(Imperial Gazetteer, Vol. xvii, P.). ومن هذا يظهر أن الملك المذكور قد
ن فى القرن الثالث الهجرى وأن زملاءه قد وصلوا إلى مليبار بعد سنتين لوفاته
ى فى سنة ٨٣٤م و٢١٩ه).

«المراكز الاسلامية فى مليبار»

توطن مالك بن حبيب وأولاده فى مليبار وبذلك تكونت هناك مراكز
مية جديدة. ثم بدأ التجار القادمون من جزيرة العرب والعراق يستوطنون
بلاد مليبار. وفوق هذا وذاك بدأ المواطنون المحليون يدخلون فى دين الاسلام
عات وفرادى بفضل الدعوة والتبشير بهذا الدين الحنيف. وهكذا تكاثرت
كز الاسلامية فى أنحاء مليبار. فلما زار ابن بطوطة مليبار فى القرن السابع
ا وجد هذه المراكز الاسلامية منتشرة فى سواحلها من «جوا» إلى «كولم»

وعنـدما وصـل « وآسكوذى كاما » إلى مليبار كان المسلمون يستوطنون بكثرة فى الاماكن الآتيـة : جنوب مليبار — كرانغلور ، ويلى پرم ، وويپ (أدونكاد) كوشين (كوچين) : وسط مليبار — چاليم ، وكاليكوت ، وپرپننغادى ، وترورنغادى تانور ، وپرون ، وفنان ، وولينكود : شمال مليبار — فاكور ، ومنغلاپرم ، وكاسركود ، پرينغادى ، ونادايرم ، وولپتم ، وكنور ، ودهرمدم ، وچملود ، وترونكادى ، سرى كشاپرم ، وأدكاد ، وكوبلاندى ، وتكودى وكاركاد . (ترجمة « مليبار » للدكتور شمس الله القادرى صفحة ٣٣) . ويقول الشيخ زين الدين : لم يكن فى مليبار ملك مسلم وكان يحكم على المسلمين ملوك هنـدوكيون . والاختلافات الداخلية التى تنشب بين المسلمين وكذلك مطالبهم الخاصة كانت تعرض على هؤلاء الملوك فيفصلون فيها . واستوطن المسلمون فى مختلف أنحاء مليبار . وبنوا هنـاك المساجد ، والمساكن . وكانوا يعيشون فيها فرحين مستبشرين ، ويحتفلون بأيام الجمع ، والأعيـاد ، بغبطة وسرور . وقد عين القضاة والمؤذنون فى المراكز الاسلامية من جانب الحكومة . ويأخذون الرواتب الشهرية من خزانة الدولة . وتنفـذ التعاليم الدينية بعناية فائقة . وأما يوم الجمعـة فيوم عطلة عامة . والمسلمون يشتغلون التجارة والزراعة . ولا تفرض الحكومة أية ضريبة على المزارعين . وأما التجار تحصل منهم عشرة فى المأته من مجموع الأرباح . وينظر الهندوس المحليون إلى المسلمين بعين الاحترام . وإذا اعتنق هنـدوسى الدين الاسلامى فيعاملون معه أيضا كسائر المسلمين الاصليين — معاملة احترام وتقدير . ولأجل هذا كله يرغب أهل البــلاد طبيعيا فى اعتناق الدين الاسلامى . ويقول الشيخ زين الدين فى صدد حديثه عن عادات وتقاليـد الهندوس المتبعة بمليبار فى ذلك العصر : إذا مس أو قرب فرد من الطبقة السفلى من شخص من الطبقة العليـا فلا يجوز له تناول الطعام قبل أن يغتسل . وإذا خالف أحد هذه القاعدة فيطرد من طبقته ومن مذهبـه ، وكذلك ممنوع على الطبقـة العليا تناول طعام مصنوع بأيدى

أفراد الطبقة السفلى. وإذا تزوج فرد منضم إلى الطبقة العليا بامرأة فى الطبقة السفلى أو تزوج شخص فى الطبقة السفلى بامرأة فى الطبقة العليا فيطرد كل من الرجل والمرأة من الطبقة العليا من مذهبه — (تحفة المجاهدين الجزء الثالث). وقد كتب السائح « دونو » (Thevanot) عن الطبقات فى مليبار، ويقول: وفى مليبار طائفتان معروفتان باسم « ناير » و« پلين » وإذا اقترب فرد من الطائفة الأخيرة بشخص من الطائفة الأولى فتنجس « ناير » طبقا للاعتقاد الشائع. ويجب على « ناير » قتل ذلك « البلين » وإلا إذا علم الملك بهذا فيصدر أمره بقتل « ناير ». وطلبا للنجاة من هذه الفاجعة، كلما يخرج « پلين » من مسكنه إلى الحقول أو غيرها يهتف حينا وآخر قائلا « پولو »، « پولو » بصوت عال. وإذا سمعه « ناير » يهتف بدوره قائلا: « كو »، « كو ». فيفهم « پلين » بأن فى قربه « ناير » فيترك له الطريق — (سياحة مسيو « دونو » صفحة ٦٧-٦٦). فاذا وقع ناير فى مثل هذه الفضائح إما يفر إلى مكان لا يوجد فيه أحد من معارفه، أو يعتنق الدين الاسلامى. وكان الاسلام لپلين أيضا ملجأ للنجاة من هذه العيشة الوضيعة، لأنهم إذا دخلوا فى الاسلام يعاملون معاملة المساواة والاحترام من جميع الطوائف. وكانت هذه الطبقيات من أهم عوامل انتشار الاسلام فى ربوع مليبار. أما استيطان المسلمين فى الهند فلم يكن منحصرا فى مليبار بل كانت هناك مستعمرات للسلمين فى البلاد المجاورة لها. ويقع فى الجنوب الشرقى من مليبار « معبر » (كورا منڈل) وكانت السفن التجارية للعرب والايرانيين فى طريقها إلى الصين وجاوا تقف فى موانئ معبر كما تقف فى شواطئ مليبار. واستوطن كثير من أهل السواحل لجزيرة العرب وإيران فى تلك الموانئ فى القرون الأولى. وإن أسرة « پاتليا » هى التى كانت تحكم على معبر الجنوبى المجاور لمليبار. وقد اكتشفت معلومات عن هذه الأسرة فى لوحات أشوكا وجغرافية بطليموس. ومن هنا تعرف أقدمية تلك الأسرة العريقة — (الترجمة المليبارية لكتاب « مليبار »

للدكتور شمس الله القادري صفحة ٣٦).

ولما وصل «ماركو بولو» إلى مليبار (١٢٧١م و ٦٧٠هـ) كان «سندرا پانٹیا» ملكا على البلاد. وكانت الأسواق التجارية فى ارتفاع ملحوظ، وآثار الرخاء مشهودة فى كل مكان. ويقول ذلك السائح: فيما بين هذه البلاد وبين سيلان مضيق. وتستخرج منه الدرر الثمينة. ويجتمع هناك الغواصون من شتى أنحاء العالم فى شهرى ابريل ومايو لهذا الغرض. ولا توجد فى هذه البلاد خيول. ولهذا تصرف مبالغ ضخمة من إيراد البلاد لاستيراد الخيول. ويصدرها التجار من هرموز وسوهار وعدن. ويبلغ مجموع الخيول التى تجرى فيها التجارة سنوياً حوالى ألفين خيل. وقيمة الخيل الواحد خمسمائة دينار (هو ضرب من قديم النقود الذهبية. تساوى قيمته لروبيتين ونصف روبية). وإن مدينة «كايل» (كايل پٹنام) كانت من أهم موانئ معبر وفيها يجتمع التجار من جزيرة العرب وعدن بكثرة ملحوظة — (Marcopolo Book iii, Chap. xvi, PP. 333-34). ويقول المؤرخ رشيد الدين: إن وزير الملك «سندرا پانٹیا» ومستشاره كان مسلما واسمه تقى الدين عبد الرحمن وقد عينه الملك والياً على قطاع كايل (كايل پٹنام) وفتن (كيزكر) وملاى فتن (ناكا پٹنام). وقد بين المؤرخ عبد الله وصاف فى كتابه (الموضوع فى سنة ١٣٢٧م و ٧٢٨هـ وسماه: «تجزئة الأمصار وتزجية الأعصار» المشهور بتاريخ وصاف) حالات وكيفيات تقى الدين، وحكم «پانٹیا» فى معبر. وهاكم الآن بعض ما جاء فيه: يقع معبر ممتداً بين «كويلون» و «نلور». ويبلغ طوله حوالى ثلثمائة فرسخ. (فرسخ الطريق ثلاثة أميال هاشمية، وقيل اثنا عشر ألف ذراع، وهى تقريبا ثمانية كيلومترات). وعرف ملك ذلك البلد باسم «ديور» ومعناه الغنى. ولهذا البلد علاقات تجارية مع مختلف بلدان العالم. وتصل إليه السفن من الصين و «ماچين» والهند، والسند،

وغيرها. وتصدر من هناك البضائع إلى العراق وخراسان والروم وبلاد أوربا وما إلى ذلك من البلدان. ولهذا أصبح معبر مفتاح الهند. وكان للملك «سندرا پاتليا» ثلاثة أشقاء وكانوا أيضا يحكمون بعض جهات البلاد. أما المسؤل عن المصالح التجارية أمام الملك فهو تقي الدين وزير الملك ومستشاره. وأما مدن «فتن»، و«ملاي فتن»، و«كايل» فكانت تحت سيطرته. ولد محمد طيب — والد تقي الدين — في المدينة (يثرب) ثم ارتحل إلى فارس. واشتغل بالتجارة البحرية. واتخذ جزيرة قيس في الخليج الفارسي مركزاً لتجارته. وأقام جمال الدين الأخ الأكبر لتقي الدين في تلك الجزيرة. وأما سفنه التجارية فكانت تروح إلى شتى بلاد العالم. وهو يجمع الخيول من جزر فارس وقطيف و«لها»، وبحرين و«هرموس» ثم يرسلها إلى معبر. ويبلغ ثمن خيل واحد في ذلك الوقت حوالي مأتين وعشرين دينار. وفي أيام حكم أبي بكر بن سعد سنگي (١٢٦٠ - ١٢٢٦م و٦٥٨ - ٦٢٣ هـ) كانت تصدر سنويا إلى معبر عشرة آلاف خيل. وقد بلغ مجموع الدخل من هذه التجارة تقريبا مليونين من الدينار. وكان مسلمو الجزيرة وفارس يدعون جمال الدين بلقب «ملك المسلمين». ومنحوا أيضا لتقي الدين لقب «الملك الأعظم»، و«مرزبان هند». ولما توفي الملك «سندرا پاتليا» جلس على عرشه أخوه «كلشا ديو (كلشيخرا) پرمال» وقد أبقى تقي الدين على منصبه. وانتقل تقي الدين إلى رحمة الله في سنة ٧٠٣ هجرية. ففكر الملك في مصادرة أمواله ولكن قدم ابن أخيه سراج الدين بن جمال الدين هدايا ثمينة إلى الملك بمبلغ مأتي ألف من النقود الذهبية. فسر بها الملك أي سرور فعين سراج الدين وزيرا له. وكان لـ«كلشا ديو» ابنان، «سندرا پاتليا» و«ويرا پاتليا»، ووالدة «سندرا پاتليا» كانت زوجة الملك القانونية. وأما «ويرا پاتليا» فكان من أمة له. و«كلشا ديو» كان قد عين «ويرا پاتليا» خلفا له، فصار «سندرا پاتليا» غاضبا على والده بسبب هذا التعيين، وقتله في سنة ١٣٠٩م

و ٧٠٩هـ. وبهذا استولى على الحكم والخزانة بدون مقاومة. ثم سافر إلى «منكور» وتبعه «ويرا پاتيا»، ووقعت معركة حامية بين الأخوين وفر فيها «سندرا پاتيا» ولجأ إلى جيش السلطان علاء الدين خلجى، وكان الملك كافور مشتغلا بالحرب فى بحر «دوارا». وبعد أن فتح ذلك المكان أغار على «مدرا» نزولا على طلب الملك الفار «سندرا پاتيا». وفى السابع عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣١٠م و ٧١٠هـ فتح تلك المدينة وأجلس «سندرا پاتيا» على العرش بعد أن طرد «ويرا پاتيا» منه. ثم توجه الملك كافور إلى الجنوب فوصل «راميشورم» وبنى فيها مسجداً التذكار. كان ذلك المسجد باقيا إلى عهد الامبراطور جهانگير، ١٦٦٠ - ١٦٣٨م و ١٠٣٨ - ١٠١٤هـ — (تاريخ وصاف الجزء الثالث ص ٥٠١، ٥٣١، ٥٣٠، ٥٠٥، ٥٠٣، ٥٠٢).

﴿ حكم البرتغاليين فى مليبار ﴾

سمع الأوربيون عن ثروات الهند وعن عجائبها منذ قرون مديدة. ولما عاد «ماركوپولو» (Marcopolo) إلى بلاده بعد أن اختتم رحلته وبين لمواطنيه مشاهداته فى الهند وما حواليها ازدادت رغبتهم الملحة فى الوصول إلى الهند وقويت إرادتهم فى اكتشاف الطرق الموصلة إليها من أوربا. وكانت الطريقة المعروفة فى ذلك الوقت عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى، وأن البلاد المجاورة لهذا الطريق كانت فى أيدى المسلمين. والوصول إلى الهند من هذا السبيل كان صعبا على الأوربيين. ولهذا بدأوا يبحثون عن طريق آخر جديد يوصلهم إلى الهند. وحاولوا الوصول إليها من طريق الشاطئ الغربى لأفريقيا، وفى سنة ١٤٨٦م و ٨٩١هـ ركب الملاح البرتغالى «برتلوميو ڈياس» (Berthelomew Diaz) السفينة من ميناء «لسبون» ببرتغال قاصدا الهند. ولما وصلت السفينة الى نقطة الشاطئ الجنوبى لأفريقيا بعد أن اجتازت الشاطئ الغربى أخذتها الأعاصير

ـديدة. وبعد أن هدأت الأعاصير ألق رواسيها على مقربة من «رأس البحر» (Cape وسماه «رأس الأعاصير» (Cape of Storm). فلما عـلـم ملك البرتغال هذا الخبر سماه (Cape of Good Hope) — (أى رأس الرجاء الحسن) لأنه كان ـغب فى الوصول إلى الهند من هـذا الطريق. وبعـد هذه الواقعة، خرج كرسٹوفر كولمباس» (Christopher Columbus) بأمر من ملك أسبانيـا فى سنـة ١٤٩٠م و٨٩٨هـ لاكتشاف الطريق الموصلة إلى الهند. ولـكن سفينته توجهت ـن الشاطئ الغربى لأفريقيا إلى الجهة الغربية بدل التوجـه إلى الجهة الجنوبية حتى وصلت إلى القارة الأمريكية. وهكذا شاءت الأقدار للأوربيين أن يعلموا ـجود عالم جـديد لم يكتشف بعد. وبعد أن مضى ست سنوات من هـــذه لواقعة غادرت ميناء برتغال بعثة اكتشافية يرأسها «واسكوڈى كاما» (Vasco de Gama) ى سنة ١٤٩٨م و ٩٠٤هـ ووصلت هذه البعثة إلى جزيرة «مدغشقر» (Madagascar) لتى هناك «واسكوڈى كاما» ملاحا مسلما، وعرف منه الطرق الموصلة إلى الهند. ـبفضل إرشاد ذلك المسلم استطاعت سفينته أن تصل إلى سواحـل مليبار بسهولة. ـنذ ذلك التاريخ عرف أهل أوربا الطريق إلى الهـنـد. ووثقوا العلاقات بالهند ـباشرة. وكانت بعثة «واسكوڈى كاما» تتألف من ١٦٠ شخص فى أربع سفن، ـوصلوا إلى مليبـار فى ١١ من شهر مايو سنة ١٤٩٨م بعد أن قضوا فى الرحلة ـشرة أشهر وتسعة أيام. والمينـاء الذى نزلوا فيه أولا بمليبار هو «پنتلانى» ثم ـنقلوا إلى كاليكوت، وأقاموا هناك مدة سنة ونصف. وخلال هذه المدة استطاعوا ـتعرف بالأهالى، والوقوف عـلى عاداتهم وتقاليدهم. ثم عادوا إلى بلادهم الأصلية ـوصلوا إلى «لسبون» عاصمة برتغال سنة ١٤٩٩م فى التاسع والعشرين من شهر ـغسطس. وفى سنة ١٥٠٠م أوفد ملك البرتغال بعثة ثالثة إلى الهـنـد. وكان ـئيسها «كابرال» (Cabral) وكانت تحتوى هذه البعثة على ألف وثلثماية من الأشخاص ووصلوا إلى كاليكوت فى الثالث عشر من شهر سبتمبر سنة ١٥٠٠م (الثامن عشر

من شهر صفر سنة ٩٠٦ هجرية). وبعد أن استقر مقامهم فى مليبار قالوا للملك «ساموترى» ملك كاليكوت «إنهم يجلبون له ربحا كبيرا فى التجارة، إذا امتنع المتاجرة مع العرب». فلم يقبل «ساموترى» هذا. ولأجل هذا نشبت حرب شعواء بين البرتغاليين وبين أهل كاليكوت، وفر البرتغاليون إلى كوشين (كوچين) بعد أن رموا المدينة بالقنابل، ثم وثقوا العلاقات مع ملك كوشين وجمعوا البضائع فعادوا إلى بلادهم. فلما علم «ساموترى» بأن ملك كوشين ساعد البرتغاليين أرسل جيشا إلى كوشين. ودار قتال عنيف بين الفريقين ففر فيها ملك كوشين إلى جزيرة «ويپ» واعتصم فيها. وفى ذلك الحين وصلت جماعة من البرتغاليين من القوة البحرية وساعدوا ملك «كوشين» وأعادوه إلى بلاده وأجلسوه على عرشه. ومكافأة على هذه الخدمة صرح الملك للبرتغاليين ببناء قلعة لهم فى كوشين. فهذه أول قلعة بنوها فى الهند — (الترجمة المليبارية لكتاب «مليبار» للدكتور شمس الله القادرى صفحة ٢٨ - ٢٩).

وفى سنة ١٥٠٥م و٩١٠هـ بعث البرتغاليون «فرانسسكو ذى ال ميدا» (Francisco De Almeida) مندوبا ملكيا إلى الهند. ومما هو جدير بالذكر أنه لم تكن فى الهند قطعة أرض للبرتغاليين فى ذلك الوقت، فلما وصل فرانسسكو إلى مليبار أقام فى كوشين. ثم بدأ البرتغاليون يمنعون التجار المسلمين من ممارسة تجارة الفلفل التى كانت فى أيديهم منذ سنين طويلة. وشنوا الغارات والقرصنة على سفنهم التجارية فى طريقها إلى البلاد العربية والعجمية. ولم يتحمل الملك ساموترى والمسلمون هذه الغارات الخادعة. فطلبوا يد المساعدة من ملكى گجرات، و«بيجاپور» ومن سلطان مصر. وإلى ذلك الحين كانت مدينة «وِنيس» (Venice) (فى إيطاليا) مركز الأسواق للبضائع الهندية. وأما أهل «ونيس» فكانوا يستوردون هذه البضائع من مصر. وعلم أهل «ونيس» أن تجارتهم

ى خطر بسبب البرتغاليين، فقرروا مساعدة المصريين لمقاومة البرتغاليين وشحنوا إلى مصر الأشياء اللازمة لصنع اثنى عشر سفينة حربية — (تاريخ العرب طبع مصر صفحة ٢٧٣ - ٢٧٢). وكان يحكم مصر (١٥١٦-١٥٠٠م و ٩٢٢-٩٠٦هـ) الملك «أشرف أبو نصر»، والسلطان محمود كان يحكم على گجرات (١٥١١-١٤٥٨م و٩١٧-٨٦٢هـ). فقد وصلت إلى «ديو» (Diu) ثلاثة عشر سفينة حربية مصرية. وانتقلوا من «ديو» إلى «شول» (Chaul) فشنوا الحرب على البرتغاليين وغلبوا عليهم. ثم عادوا إلى «ديو»، وأثناء ذلك أرسل الملك ساموترى أيضا أربعين سفينة حربية واستعد الجيش البحرى فى گجرات أيضا للخوض فى حرب ضد البرتغاليين. وخرج «فرانسسكو ال‌ميدا» من «كنور» مع معدات حربية ضخمة. ووصل إلى «ديو» بعد أن أجرى قتلا عاما فى «دابول» فى طريقه إلى «ديو». فوقعت هناك حرب شعواء بين الفريقين فغلب فيها البرتغاليون على المصريين. صالح أمير البحر فى گجرات ملك إياس مع البرتغاليين. ثم عاد البرتغاليون من هناك إلى كاليكوت. فأحرقوا «المسجد الجامع» الذى بناه فيها «ناخدا مثقال». ثم ذهبوا إلى مدينة «فنان» وشنوا فيها الغارات والقتل العام. ومن هناك توجهوا إلى بلدة «كويلون» وبنوا فيها قلعة لهم. وفى ذلك الزمن عين «أل‌بقرق» (Albuquerque) حاكما إلى الهند من قبل البرتغاليين. وأول عمل قام به بناء مركز دائم ثابت لهم فى الهند. فان «جوا» تقع فى السواحل الممتدة بين مليبار وگجرات. ووقع اختياره على ذلك المكان لهذا الغرض. واستولى عليه بدون أية صعوبة. وكانت «جوا» فى ذلك الوقت تحت حكم «بيجاپور» فلما وصل خبر استيلاء البرتغاليين على جوا خرج إلى «جوا» وطرد منها «أل‌بقرق» (Albuquerque) وعين عليها حاكما من عنده. وتوفى يوسف عادل شاه (سنة ١٥١٠م و٩٢٦هـ) وجلس على عرشه الملك الشاب «اسماعيل عادل شاه» انتهز «أل‌بقرق» هذه الفرصة فشن حملة على «جوا». وبعد قتال شديد استولى

عليها. وقتل فيه ستة آلاف جندي مسلم. وحدث هذه الفاجعة في سنة ١٥١٠م و٩١٦هـ. ولا تزال هذه المدينة (جوا) تحت سيطرة البرتغاليين منذ ذلك التاريخ.

وأخذت تجارة المسلمين في ضعف واضمحلال منذ ذلك الحين. وقويت شوكة البرتغاليين في سواحل الهند. وبدأت سفنهم التجارية تروح إلى الصين عبر جزيرة سيلان، والجزر الشرقية. وفي الشمال وصلوا إلى موانئ الخليج الفارسي. فلما توجه الامبراطور «همايون» نحو گجرات طلب السلطان بهادر شاه الامدادات من البرتغاليين (هذا في سنة ١٥٢٦ - ١٥٣٦م و٩٣٢-٩٤٣هـ). وعندما وصلوا إليها لمساعدة السلطان، حصلوا على إذن خاص منه لبناء المنازل لهم في مدينتي «بومباي» و«مايا». ومن هناك أغاروا على «ديو» وقبضوا عليها. فلما سمع السلطان عن هذه الغارة استدعى أمير البحر للبرتغاليين إلى قصره للاستفسار عنها. ولكن رفض المثول أمام السلطان معتذرا بالمرض الذي أصابه. فخرج السلطان بنفسه مع حاشيته في «قارب» إلى ميناء «ديو». وفي طريق عودته منها قتله البرتغاليون غدرا. وجرت هذه الشنيعة في عام ١٥٣٦م والثالث عشر من شهر رمضان عام ٩٤٣هـ. وبعد مقتل السلطان بهادر شاه استعان أهل گجرات بالسلطان سليمان خان – سلطان تركيا – للانتقام من البرتغاليين. فأرسل ثلثمائة سفينة حربية وسبعة آلاف جندي تركي من مصر إلى گجرات للانتقام من السلطات البرتغالية وبدأوا يشنون الغارات على «ديو» بعد أن فتحوا «عدن» في طريقهم إليها. واستمرت تلك الغارات حوالي ثمانية أشهر متتالية. وفي الأخير نفد زادهم ولم يستطع أهل گجرات لايصال الأزودة إليهم فاضطروا العودة إلى مصر – (تحفة المجاهدين ص ٤ الباب الثامن، وتاريخ فرشته الجزء الثاني ص ٤٩٥). فقد استقرت أقدام البرتغال في «جوا» و«...

وكذلك أسسوا المخازن التجارية فى كل من «كوشين» و«كنور» و«كويلون» و«دابو». ولم يكن تحت سيطرتهم أى مكان فى الهند غير هذه الأمكنة المذكورة. ولكن كانوا يعتبرون أنفسهم أباطرة الشرق بفضل سيطرتهم على السواحل. ومنح قداسة «البابا» لملك البرتغال ألقاب «امبراطور البحار الشرقية» و«فاتح العرب والهند». وكانوا يغارون على المدن، ويحرقون البيوت، ويهدمون المعابد والمساجد، ويكرهون الناس على اعتناق الدين المسيحى وإلا يسومونهم سوء العذاب ويحطون من كرامتهم. كانوا يرتكبون هذه الجرائم الشنيعة فى كل بلد نزلوا فيه. وقد سئم ملوك «الدكن» من جرائمهم هذه. فاتحدوا فى سبيل وضع حد لهذه الشنائع وقضوا أولا على الحكومة العظيمة فى «وجايانكر» التى كانت متحالفة مع البرتغاليين. (هذا فى عام ١٥٦٤م و٩٧٢هـ). ثم توجهوا نحو البرتغاليين. وأما مدينة «رانى گوند» فقد وقعت فى أيدى البرتغاليين قبل ذلك بسنين عديدة مع أنها كانت تحت حكم الدولة النظامية. وهى ميناء بالقرب من «شول» (Chaul). وأما «جوا» فاستولوا عليها عنوة من أيدى سلاطين أسرة «عادل». ولأجل هذا كله اتفقت الدولتان «النظامية» و«العادلية» على استرجاع هاتين المدينتين من أيدى المغتصبين. ففى عام ١٥٧١م و٩٧٩هـ حمل جيش مرتضى نظام شاه (١٥٨٨-١٥٦٥م و٩٩٦-٩٧٢هـ) على مدينة «رانى گوند» كما توجه جيش على عادل شاه (١٥٥٧م) إلى «جوا» بعد أن فتح «أدونى». واستمرت الحملة إلى سنتين فى «رانى گوند» وعشرة أشهر فى «جوا». ولكن البرتغاليين كانوا يتلقون البنادق والمدافع وسائر المعدات الحربية من طريق البحر. ولهذا لم تصبهم خسارة كبيرة فى هذه الحملات كلها. وفى الأخير تأكد المسلمين بعدم جدوى من الاستمرار فى الحملة. فتراجعوا موجهين جيوشهم إلى فتح بلاد «كرناتك» و«كندر». أما تجارة البرتغاليين فكانت رائجة إلى القمة بفضل سوق «وجايانكر» لأنهم يبيعون معظم البضائع

المستوردة من جزيرة العرب، وإيران، ومن بلاد أوربا فى سوق «وجايانكر». ويقول «ساسنى» Sassetti و«كوتو» (Couto) إن البرتغاليين كانوا يكسبون من هذه التجارة سنويا مليون ونصف «ديوك» ويبعثون منها نصف مليون «پكودا» ذهبية إلى البرتغال سنويا (پكودا ضرب من النقود الذهبية السائدة فى ذلك الزمن). ولكن منذ سقوط حكومة «وجايانكر» فى أيدى ملوك الدكن أخذت تجارة البرتغاليين فى تزعزع واضمحلال. وانخفضت أرباحهم التجارية إلى ستة آلاف «ديوك». وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى، تحررت «هولندا» من مخالب حكم «أسبانيا» وقويت قواتهم البحرية وخرجوا إلى البلاد الشرقية منافسين فى التجارة مع البرتغاليين ووصلت سفنهم إلى الهند عام ١٥٩٦م و١٠٠٥هـ. ومنذ ذلك الحين بدأ حكم البرتغاليين أن يضعف. وطفق نفوذهم فى البلاد الهندية فى الخارج أن يتملص. وقد ضاعت مليبار كلها مع موانئها ومدنها وأسواقها من أيدى البرتغاليين خلال خمسين سنة منذ قدوم الهولنديين. ولكن حكمهم قد تبقى فى البقاع الثلاث الآتية: (١) «جوا» (Goa) فى كونكم (٢) «دامن» (Damaun) فى مهاراشترا (٣) «ديو» (Diu) فى گجرات. ولا تزال هذه البقاع تحت سيطرة البرتغاليين إلى يومنا هذا — (الترجمة المليبارية لكتاب «ملبار» للدكتور شمس الله القادرى الحيدر آبادى فى اللغة الأردوية صفحة ٨٦ - ٨٥ - ٨٤).

﴿ اسم «مليبار» ﴾

إن العرب يدعون السواحل الغربية فى جنوب القارة الهندية باسم «مليبار». أما أسماؤها المستعملة فى الكتب القديمة فى الأدب «التاملى» و«الكرناذكى» فهى «كيرلم» (Karalam) أو «مليالم» (Malayalam). أما كلمة «كيرلم» أو «كيرل» فى لغة «كرناذكم» فهى صورة مشوهة لكلمة «چيرلم» (Charalam) أو «چيرل»

(Charal) فى اللغة « التاملية » (Tamil) . ومعناها « سلسلة الجبال » لأن « مليار » بلاد تخومها سلسلة الجبال من أولها إلى آخرها . ومن هنا سميت « كيرلم » (Karalam) أو « چيرلم » (Charalam) — (Tamilian Antiquary, Vol. iv, PP. 69-71) . وتستعمل كلمة « مل » (Mala) أو « ملى » (Malai) فى لغات « دراوداس » للجبل . وتستعمل فى السنسكرتية أيضا كلمة « مليا » للجبل — (Coins of S. India, P. 122) . على أن كلمة « مليار » تتكون من مجموع كلمتى « مل » و « بار » . و « بار » كلمة فارسية ومعناها « الكثير » . فلما اجتمع لفظ « بار » إلى لفظ « مل » صار المعنى « بلد الجبال » أو « بلد كثير الجبال » . وأول من سمى « مليبار » بهذا الاسم هم الملاحون الذين قدموا إلى بلاد مليبار من الجزيرة العربية والفارس . وابتدأت هذه التسمية لها منذ القرن الخامس الهجرى . وأول من استعمل هذا الاسم من الجغرافيين العرب هو « شريف إدريسى » (٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) — (Elliot's History of India, Vol. 1, P. 90) . وبعد ذلك استعمله « ياقوت الحموى » (٦٢٦ هـ و ١٢٢٨ م) والمؤرخ المشهور « أبو الفدا » فى كتبهما — (معجم البلدان الجزء الرابع صفحة ٦٣٩ ، وتقويم البلدان صفحة ٣٥٣) .

﴿ ساموترى ﴾

يتضح من « تحفة المجاهدين » أن قبر « چيرمان پرمال » فى مدينة « ظفار » بسواحل حضرموت . ولا يزال باقيا مزارا عاما يعرف باسم « قبر سامرى » . وتقول أسطورة محلية فى مليبار إن حجرا منقوشا عليه اسمه وتاريخ قدومه قد نصب على قبره . ويظهر منه أن اسمه « عبد الرحمن سامرى » وتاريخ قدومه عام ٢١٢ هـ ٨٢٧ م وتاريخ وفاته سنة ٢١٦ هـ ٨٣١ م — (تاريخ « مليبار » لشمس الله قادرى) . وانتهت سلطنة عائلة « چيرا » بعد وفاة چيرمان پرمال . وأصبحت البلاد تحت حكم أمراء عديدين فى مختلف المناطق . ودامت هذه الامارات الصغيرة

إلى مئات من السنين. فلما وصل «واسكودي كاما» إلى سواحل مليبار سنة ١٤٩٧م (٩٠٣هـ) كانت الفوضى والاختلافات الداخلية منتشرة فى طول البلاد وعرضها. وكان الأمراء المشهورون فى ذلك الزمن ثلاثة وهم: أمراء «كويلون» و«كولتري» و«ساموترى». والحروب والهجمات كانت مستمرة فيما بينهم. ولكن كل هذا لم يؤثر فى حدود بلادهم ودائرة حكمهم. وكان أقواهم وأشدهم «ساموترى» بكاليكوت. وله نفوذ كبير عند غيره من الحكام. ويقول «مسيو دوانو» (Thevenot) الرحالة المشهور الذى زار «مليبار» سنة ١٦٦٧م (١٠٨٧هـ) إن «ساموترى» كان يلقب «امبراطور» فيما بين سائر الحكام — (سياحة مسيو دوانو ص ٦٣). واستمر حكمه إلى النصف الأخير للقرن الثانى عشر للهجرة. فى عام ١٧٦٦م (١١٨٠هـ) وقعت حرب بين المسلمين و«ناير» (طائفة خاصة من الطوائف الهندوكية توجد بكثرة فى أنحاء مليبار)، قتل فيها آلاف من المسلمين بأيدى ناير. وحرقت بيوت المسلمين. فلما علم هذا النبأ «حيدر على خان»، والد السلطان «تيبو» أعد عدته للخروج ليقاتل ناير انتقاما، فخرج من «منغلاپرم» مع عشرين ألف جندى ودارت حرب شعواء بينه وبين ناير فى بلدة «كنور» فغلب فيها على جيوش نابر. ثم توجه حيدر على خان إلى كاليكوت. ولكن لم تجر الحرب مع ساموترى لأن ساموترى سلم المدينة إلى حيدر على بدون مقاومة. فصار البراهمة يلامون ساموترى على هذا التسليم. فراراً من هذا العار أشعل ساموترى النار على منزله وألقى نفسه إليها فمات. ويقول بعض المؤرخين إن أقارب ساموترى الساخطين عليه هم الذين أحرقوا المنزل — (سلطنة خداداد صفحة ٧٥). وبهذا انتهت دولة ساموترى. ثم شنت جيوش نابر حربا مع حيدر على فى مدينة «فنان» وكانت النتيجة غلبة حيدر على، وفشل نابر فشلا ذريعا، فشتت شملهم، وفرق جمعهم فهربوا إلى الجبال والأوغاد. وبهذا أصبحت مليبار كلها تحت سلطة حيدر على خان — (كارنامه حيدرى ص ١٥١) وحكم حيدر على خان

على مليبار. وبعده ابنه البطل تيبو. حوالى سبعة وعشرين عاما بالتوالى. وبعد ذلك وقعت مليبار وما حواليها — شيأ فشيأ — تحت أيدى الانجليز سنة ١٧٩٢م (١٢٠٧هـ) — (كارنامه حيدرى صفحة ٣٦).

وللرحالة المشهور ابن بطوطة وصف ظريف للسلطان «ساموترى» وحالات بلاده وعاداته، فلا عجب فى ذلك لأنه شاهد عيان فى هذا كله. يقول: ثم سافرنا إلى كاليكوت، وهى إحدى البنادر (الموانئ) العظام ببلاد مليبار. يقصدها أهل الصين والجاوة، وسيلان، والمهل، وأهل اليمن، وفارس. ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا. وسلطانها كافر يعرف بالسامرى، شيخ مسن يحلق لحيته، كما يفعل طائفة من الروم. وأمير التجار بها «إبراهيم شاه بندر» من أهل البحرين، فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار ويأكلون فى سماطه. وقاضيها فخر الدين عثمان، فاضل كريم. وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى. وهو يأخذ النذور التى ينذرها أهل الهند والصين، للشيخ أبى إسحق الكازرونى. وبهذه المدينة «ناخدا» مثقال المشهور وهو صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس. ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضى الشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج ومعهم الطبول والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز عظيم (أبهة عظيمة) ما رأيت مثله بتلك البلاد. فكانت فرحة تتبعها ترحة. وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين. ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا فى دار. وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ونحن فى ضيافة الكافر — (مهذب رحلة ابن بطوطة ص ١٨٦-١٨٧ الجزء الثانى). وله وصف عام لمليبار فيقول: «وهى بلاد الفلفل. وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من «سندابور» إلى «كولم».

والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار. وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين. يقعد عليها كل وارد وصادر، من مسلم، أو كافر. وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها. فمن كان كافرا سقاه فى الأوانى، ومن كان مسلما سقاه فى يديه. ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف. وعادة الكفار ببلاد مليبار أن لا يدخل المسلم دورهم. ولا يطعم فى أوانيهم. فان طعم فيها كسروها أو أعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الادام. واستمرد يقول: وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون. فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ويطبخون لهم الطعام. ولولا هم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذى ذكرناه أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة. وكل إنسان بستانه على حدة وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب. والطريق يمر فى البساتين. فاذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج أخرى ينزل عليها إلى البستان الآخر. هكذا مسيرة الشهرين. ولا يسافر أحد[1] فى تلك البلاد بدابة، ولا تكون الخيل إلى عند السلطان. وأكثر ركوب أهلها فى «دولة» على رقاب العبيد أو المستأجرين. ومن لم يركب «دولة» مشى على قدميه كائنا من كان. ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم. فترى هناك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى أعلاه مخطاف حديد. فاذا أعيا ولم يجد «دكانا»[2] يستريح عليها ركز عوده بالأرض وعلق حمله عليه. فاذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به. ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق. وهم يقتلون

١ — فيه نظر. وفيما يخيل لنا أن فيه شيئا من المبالغه أو قلة التحرى.
٢ — شىء كالمصطبة يقعد عليه.

السارق على الجوزة الواحدة. فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه. وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة. وبلغ خبره الحاكم فأمر بعود فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره. وترك عبرة للناظرين. ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعظوا! ولقد كنا نلق الكفار بالليل فى هذه الطريق. فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز. والمسلمون أعز الناس بها. غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلون دورهم. وفى بلاد مليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار، منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف. ولا فتنة بينهم ألبتة ولا يطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف. وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ويسمونه باب أمان فلان! واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر أمن على نفسه، ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه وإن كان القوى صاحب العدد والجيوش. وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم. وإذا أراد السلطان من أهل بلاد مليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشترى ما دامت عليها تلك الأغصان! — (مهذب رحلة ابن بطوطة الجزء الثانى صفحة ١٨١).

ثم يقول ابن بطوطة: وأول مدينة دخلناها من بلاد مليبار مدينة «أبي سرور وهى صغيرة على خور[١] كبير كثيرة أشجار النارجيل. وكبير المسلمين بها الشيخ «جمعة»

١ — الخور: المنخفض من الأرض بين النشزين.

أحد الكرماء. أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة «فاكور» مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذى لا مثل له بتلك البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط. وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين مسجدا لاقامة الجمعة.

﴿ بلاد الفلفل ﴾

ورد ذكر بلاد مليبار فى الكتب العربية باسم «بلاد الفلفل» ولابن بطوطة وصف رائع للفلفل فى مليبار. ويقول: وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب. وهم يغرسونها إزاء النارجيل، فتصعد فيها كصعود الدوالى. وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل[1]. وبعضها يشبه أوراق العليق[2]، ويثمر عناقيد صغارا. وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر فى الشمس كما يصنع بالعنب. ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه. ثم يبيعونه على التجار. والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار. وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش. وليس كذلك وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس. ولقد رأيته بمدينة «كاليكوت» يصب للكيل كالذرة ببلادنا! (مهذب رحلة ابن بطوطة جزء ٢ ص ١٨٢).

---

١ — بالكسر وبفتح القذاب.
٢ — نوع من النبت يتعلق بالشجر.